صناعة الآخر في نقد ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) في كتابه سر الفصاحة

The making of the other in the criticism of Ibn Sinan Al-Khafaji (d. 466 AH) in his book The Secret of Eloquence

أ م. د. أفراح جاسم محمد

وزارة التربية الكلية التربوية المفتوحة

M. Dr.. Afrah Jassim Mohammed

Ministry of Education Open Educational College

Petersalaura621@gmail.com

ملخص:

تمثل ثنائية (الذات والآخر) من القضايا المهمة كونهما متلازمان وهذا التلازم لا يمكن أن يتحقق إلاّ بوجود هذين الطرفين أو القضيتين على حدٍّ سواء، وهذا الوجود يتباين من ذات إلى آخر تبعاً لاختلاف رؤية الذات للآخر من حيث قبوله أو رفضه وتهيئته، وهذا القبول أو الرفض هو ما نلحظه في مؤلف لناقد عربي قديم من القرن الخامس الهجري، عُرِفَ بعلمه الواسع في النقد والبلاغة العربية وعلوم اللغة الأخرى وهو ابن سنان الخفاجي(ت ٤٦٦هـ) والذي عُرِفَ عنه أنه كان شاعراً وأديباً أيضاً، والمتأمل في مؤلفه الموسوم (سر الفصاحة) يجد أن حضور الآخر المتمثّل بـ (مؤلف الكلام والشاعر والكاتب) قد غلب عليه الضعف أو السلبية وهذا راجع إلى طبيعة (الأنا لابن سنان) الناظرة للآخر بنظرة استعلائية كونه ناقد ولغوي وبلاغي وعالم بخبايا النص، وهذا راجع إلى تعالي الأنا، فالآخر من وجهة نظر ابن سنان على الرغم من ما يمتلكه من معرفة لا يزيد على ما تمتلكه الأنا الناقدة لابن سنان وهذا ما لمسناه في تضاعيف مؤلفه ولاسيّما أن ابن سنان لم يكتفِ بتوجيه الاخر وتكوينه على الوجه الذي يحب

وإنما حاول بيان مفهوم الفصاحة والفرق بينها وبين البلاغة مبيناً الأسس التي تحددت على وفقها ليتسنى للآخر التزود والإحاطة بالمعرفة من جميع جهاتها، وهذا ما يبدو نابع من شغف الناقد العربي بفنون القول الذي كشفت عنه ذات الخفاجي.

الكلمات المفتاحية: الآخر، النقد، صناعة، الذات، الأنا

Summary:

The duality of (**the self and the other**) represents one of the important issues because they are interconnected, and this interconnectedness cannot be achieved except by the presence of these two parties or issues alike, and this existence varies from oneself to another depending on the difference in the self's view of the other in terms of accepting or rejecting him and preparing him, and this acceptance or rejection. This is what we notice in the work of an ancient Arab critic from the fifth century AH, who was known for his extensive knowledge of criticism, Arabic rhetoric, and other linguistic sciences. He is Ibn Sinan Al-Khatami (**Died. 466 AH**), who is known to have been a poet and writer as well. Anyone who meditates on his book titled (**The Secret of Eloquence**) will find that The presence of the other represented by (**the author of the speech, the poet, and the writer**) has been dominated by weakness or negativity. This is due to the nature of (**Ibn Sinan's The Ego**), which looks at it with a superior look, as he is a critic, linguist, and rhetorician, and knows the secrets of the text. This is due to the transcendence of the ego. The other is despite what he possesses. Knowledge does not exceed what the critical ego of Ibn Sinan possesses, and this is what we have seen in the multiplication of his work, especially since Ibn Sinan did not content himself with directing the other and shaping him in the way he likes, but rather he tried to explain the concept of eloquence and the difference between it and eloquence, indicating the foundations according to which it was determined so that the other could acquire and be aware of knowledge from In all its aspects, this seems to

stem from the Arab critic's passion for the arts of speech, which was revealed by Al-Khafaji.

Key Words: The other, criticism, industry, self, arrogance

المقدمة:

إنَّ بناء الذات لا يتم بمعزل عن الآخر كونهما متلازمان وهذا التلازم يفضي إلى تواصل الذات مع الآخر، وعند النظر إلى النقد العربي القديم نجد مفهوم (الآخر) تتحدد دلالته على وفق رؤية (الأنا) المتأطرة برؤية الناقد لصورة الآخر، وتبعاً لعامل التداعي النفسي في السلب والإيجاب يكون هذا الآخر محط اهتمام النقاد العرب القدماء ورؤيتهم لهذا الآخر التي تعود على عملية انتقائهم لملامح صورة الآخر ليكون هذا الآخر كما تراه ذات الناقد وتشتهيه (محمد الخباز، ٢٠٠٩م، صفحة ٢٦). وبهذا يتحدد الإطار العام للآخر بحسب توظيف رؤية الناقد له ومكانته موضوعاً للذات ومقابلاً لها (كاظم، ٢٠١٠م، صفحة ١٣٣)، وهذا ما نتلمسه في نقد نقادنا القدماء ومن بينهم ابن سنان الخفاجي.

إذ لا بُدَّ لنا من وقفة بسيطة للاطلاع على حياة ابن سنان ومعرفة مرجعياته الثقافية ومؤلفاته.

حياة ابن سنان وأهم أعماله:

ابن سنان الخفاجي هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي العالِم الشامل الأديب، ولد في (سنة ٤٢٢هـ)، وهو من بني خفاجة الذين كانوا ينزلون بأعمال حلب، وكان أبوه من أشرافها ولما شبَّ أخذ العلم والأدب على علماء عصره ثم اتصل بأبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بمعرّة النعمان فأخذ عنه العلم والأدب، وكان انتفاعه منه أكثر من غيره كما يظهر مما يذكره كثيراً عنه في كتابه (سر الفصاحة)، ولما أتم تعليمه سعى لدى أبي نصر محمد بن الحسن بن النحاس، وكان وزيراً لأمير حلب محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، حتى ولاه قلعة عزار من أعمال حلب، ولكنه كان في نفسه نزوع إلى الثورة وسخط على أولياء الأمر في عصره، وقد تأثر فيه بأستاذه أبي العلاء المعرّي، كما تأثر فيه بعقيدته في التشيع، فلم يلبث أن أعلن العصيان على الأمير محمود بن نصر فأمر وزيره ابن النحاس أن يكتب إليه يستعطفه ويؤنسه ليرجع إلى الطاعة ويحضر إليه حلب ولكنه رمز إليه في كتابه بأنهم يريدون به شراً، ففهم ما رمز إليه واستمر على عصيانه ولكن نسي بعدما التقى الخفاجي بأبي نصر وأعطاه خشكانجتين ليأكلها وكان أن تناول الخفاجي الخشكانجة منه وأكلها ورجع إلى عزار فأصاب الخفاجي ألم شديد فقال: قتلني والله أخي أبو نصر، ولم يلبث الخفاجي أن مات سنة ٤٦٦هـ.

فمات الخفاجي في سن مبكر ولم يحقق شيئاً من مطامعه التي يقول فيها:

من مبلغ اللوام أن مطامعي صارت حديثاً بينهم وقصائدا

ولا شكَّ أنه قد ورث هذا السخط على عصره من أستاذه أبو العلاء المعرّي ولكن أبو العلاء قبع في داره لأنه ضريراً، أما الخفاجي فقد كان مبصراً وكان جريئاً واضحاً في آرائه وأغراضه وكان يميل إلى مذهب معروف وهو مذهب التشيع على عكس أستاذه في ذلك كله، وينتقد ما يسلكه أستاذه من تكلف في شعره ونثره، كما أشار إلى هذا في مواضع من كتابه (سر الفصاحة).

وقد كمان لهذا الوضوح في آراء الخفاجي وأغراضه أثره في كتابه (سر الفصاحة) وأسلوبه فيه بأسلوب أدبي علمي ممتاز لا يطغى فيه ذوق الأديب على ذوق العالِم، كما طغى في أسلوب عبد القاهر الجرجاني وكان لهذا أثره فيمن حذا حذوه من المتأخرين من علماء البلاغة. ومن الجدير بالذكر إلى أن ابن سنان قد تناول موضوعات كنابه بأسلوب العالِم الأديب والناقد البصير بعد دراسات واسعة في دواوين من سبقه من الشعراء وفي كتب النقد الأدبي من أمثال نقد الشعر لقدامة بن جعفر والموازنة بين أبي تمام والبحتري للآمدي والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني، فجاء كتابه خلاصة لهذه الكتب بعد تهذيب وتنقيح فيها وهذا إلى ما أضافه إليها بفكره واجتهاده في ذلك العلم (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة م،د،هـ،و).

صناعة الآخر في نقد ابن سنان الخفاجي:

لقد أخذ مفهوم (الآخر) مدياته بالاتساع بتعاقب الأزمان وتطور المجتمعات وتقدمها في الفكر والأدب، ولعلَّ تجربة تبني الآخر أو تهميشه في المؤلفات النقدية كان لها المدى الكبير في رصد مستويات حضور الآخر في فكر الناقد، إذ تتباين هذه المستويات في رؤى النقاد العرب الكامنة في تضاعيف مؤلفاتهم والكفيلة بأن تكشف عن المستقرات في مخيال النقاد حيال الآخر متخذاً من كل ما يقع خارج الذات سواء أكان فرداً أم جماعة مؤتلفاً معها أو مختلفاً (آخر). لذا يمكن القول: إنَّ كل ما هو خارج النفس المستقلة هو آخر ولكن النظرة إلى هذا الآخر خاضعة إلى طبيعة الأنا له أو الذات كونه ينعكس في مرآتها، فالنصوص النقدية في غالبيتها تشترك فيها الأنا والآخر العلاقة متلازمة تتأرجح بين قبول الأنا لهذا الآخر وبين رفضه ولا يتاح لناقد فذ مثل (ابن سنان الخفاجي) الذي أنماز بحديثه عن شروط فصاحة اللفظ والبلاغة وما يحتاج إليه المؤلف أو الشاعر إلى معرفته أن يتجرد غالباً من هذين المفهومين (الأنا – الآخر) إذ ليس بالضرورة أن تتناغم أو تأتلف أنا الناقد مع الآخر، فلربما تختلف النزعة المعرفية للذات مع صورة الآخر وتكوينه المعرفي وهذا ما لمسناه في انطباعات (الأنا) عند الناقد (ابن سنان) الذي يرى في ذاته هي

الأساس كونه يتميز بمعرفة معمقة ومفصلة باللغة والأدب (البلاغة والفصاحة) الواضحة في معالجته للقضايا اللغوية والبلاغية والنقدية في سر الفصاحة والتي تتماشى مع نسق التطورات الفكرية والتحولات المعرفية والمستجدات الثقافية التي شرعت في وجه (الكاتب والشاعر) آنذاك، لذا نجده يقول: "فإني لما رأيتُ الناس مختلفين في ماهية (الفصاحة) وحقيقتها أودعتُ كتابي هذا طرفاً من شأنها وجملة من بيانها وقربتُ ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمـل" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٣).

والمتأمل في النص السابق يجد أن الأنا الناقدة قد شعرت بالمسؤولية على ما يبدو اتجاه الآخر، كونه يرى في ذاته (الأنا) الواعية المسؤولة عن تطوير وتنفيذ خطة عمل المتمثلة بسر الفصاحة لبيان ماهية الفصاحة والبلاغة أي (الآخر) بصورة عامة وهذا ما أشار إليه قوله السابق: "فإني لما رأيتُ الناس مختلفين في ماهية الفصاحة وحقيقتها أودعتُ كتابي هذا طرفاً من شأنها وجملة من بيانها وقربتُ ذلك على الناظر وأوضحته للمتأمل"، وهذا النص يدلُّ وبلا شك إن ذات الناقد كانت مؤثرة ومتأثرة في الآخر كون الذات تبدأ متأثرة قبل أن تكون مؤثرة في ما حولها (أبو زيد، ١٩٩٠م، صفحة ٨). وهذا التأثر والتأثير في (الأنا للناقد والآخر) ناتج عن تأثر ابن سنان فيما رآه من اختلاف ألسنة الناس وبسبب عوامل كثيرة طرأت على المجتمع آنذاك أثرت على ألسن الناس ومن بينهم الكاتب والشاعر وانعكس هذا التغيير على الأدب، فحاول ابن سنان أن يؤثر في الآخر (القارئ والكاتب والشاعر) من خلال التعريف بماهية الفصاحة والبلاغة وبيان بناء اللفظ والمعنى وتحديد ما على الكاتب والشاعر ان يلتزم به في عمله الأدبي لبلوغ الجودة الفنية، وذلك لأنَّ ابن سنان يرى في ذاته الأنا العارفة لتقويم هذا الاختلاف بين ألسنة الناس، وذلك إنَّ: "المعرفة أو ادعاء المعرفة بالآخر تجسدت في إنشاء خطاب لتمثيل هذا الآخر بالشكل الذي يبرز ويعزز فعل السيطرة عليه وإقصائه إلى الهامش بعد تتويج الأنا العارفة مركزاً" (رحيم، ١٩٩٨م، صفحة ٥٣).

ومن الطبيعي أن يميز ابن سنان ذاته بعدها رأى اختلاف الناس في ماهية الفصاحة وحقيقتها وابتعاد الشعراء والكتّاب عن الالتزام بشروطها ولما عرف عنه من ذكاء وحنكة والإجادة الفطرية إلى جانب التزود بالمعرفة المكتسبة لفنون القول والعلوم المختلفة ولاسيّما البيان والبلاغة أهّله لهذا التميز والاعتداد بالنفس وهذا ما أشار إليه ضمناً في حديثه عن اللغة يقول: "وليس يحتاج إلى حصر الحروف التي يتعلق بها وإنما الغرض ذكر ما في اللغة العربية التي كلامنا عليها لأنَّ في غيرها من اللغات حروفاً ليست فيها كلغة الأرمن وما جرى مجراها" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ١٨).

نلحظ في هذا النص وجود نسقين مختلفين في الدلالة أشار إليهما الخطاب ذاته إذ يدلُّ الأول على العموم فهو خطاب إلى آخر ضعيف هش في نظر الذات لا يمتلك من المعرفة في اللغات الشيء الكثير، أما الثاني يكشف عن تعالي الأنا عند ابن سنان وتفردها مضخماً إياها بقوله: (ليس يحتاج – ذكر ما في اللغة التي كلامنا عليها –

لأنَّ في غيرها من اللغات حروفاً ليست فيها) فهذه الجمل من الخطاب السابق ترسخ في ذهن (الناظر أو القارئ والمتأمل) وتحفّز لانتباهه إلى ما يمتلكه ابن سنان من معرفة وسعة اطلاع وبذلك تأخذ (ذاته) المديات الواسعة في إظهار ذات ابن سنان المستبدة التي تحاول إقامة نسق استعلائي (عليمات، ٢٠٠٤م، صفحة ٧٩) يبتغي منه إظهار تعالي الأنا على الغير أو الآخر، وهذا واضح أيضاً في قوله: "ومن تتبع أيضاً جميع اللغات لم يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية في كثرة الأسماء للمبنى الواحد ..." (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٤٩).

وفي هذا الخطاب يميز ابن سنان اللغة العربية عن جميع اللغات تمييزاً دقيقاً فهي انمازت بغزارة مفرداتها وهذه الغزارة منحتها شيء من التفرد وضمنت استمراريتها عبر توالي العصور ومن سماتها المميزة لها:

١. هي لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.
٢. هي اللغة الوحيدة في العالم التي تضم بين حروفها حرف (الضاد).
٣. تتوزع الحروف فيها على مخارج الشفتين مكونة أصوات لحروف قلما نجدها أو نسمعها في باقي اللغات.
٤. ومن عناصر جمال اللغة العربية عنصر (الترادف) وهو دلالة تعدد الألفاظ التي تدلُّ على معنى واحد ضمن درجات ومستويات ومن أهم المصادر أو المصنفات في الترادف التي عرفها العرب هو كتاب (الألفاظ المترادفة) للرماني، فضلاً عن أن عنصر الترادف يمثل أبرز أنواع الثراء الدلالي في اللغة العربية وذلك أن "من أسرار قوة اللغة العربية كثرة مترادفاتها التي مكّنت الشعراء من أن ينظموا عليها قصائد طويلة مع التزام الروي والقافية كما أنها أداة جيدة لبلاغة الكُتّاب، وفصاحة الفصحاء، فقد استطاعوا أن يتخيروا من الألفاظ المترادفة ما يناسب السمع أحياناً والترصيع أحياناً أخرى" (القوصي، ٢٠١٦م، صفحة ٩٥). وبذلك تتجلى لنا رؤية ابن سنان في تأكيده على أهمية اللغة العربية ولاسيّما أن دلالة اللفظ الواحد تتعدد للمبنى الواحد وبحسب السياقات المتضمنة له، وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدلُّ على فكر ابن سنان العميق وهو في قوله: (لم يجد فيها على ما سمعته).

في هذه الجملة من نصه السابق يقدّم لنا رؤية يذهب بها إلى ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي ديكارت عندما رأى أن (أنا) هي الأساس في المعرفة عن طريق مقولته: "أنا أفكر إذن أنا موجود" (ديكارت، ١٩٦٨م، صفحة ٢٠٠). إذ إنَّ الذات عند ابن سنان تستطيع أن تصل إلى الحقيقة واليقين عن طريق التفكير في اللغة العربية وبنائها واشتقاقاتها والفرق بين اللغات الأخرى من أجل بلوغ الهدف المعرفي، فضلاً عن أن الذات الناقدة لابن سنان معروفة بفصاحتها وثقافتها وعلو مكانتها في الأوساط الثقافية، وبذلك يشعر الآخر ان الذات هي الأساس الذي تصدر عنه الأحكام والمعايير التي يمكن من خلالها تحديد من هو الاخر (البازعي، ٢٠٠٨م، صفحة ٣١)؛ لأنَّ الحكم على الآخر يعتمد بالدرجة الأساس على طبيعة الأنا الناظرة للآخر من منظور مركزية الذات الناقدة نقداً منهجياً معرفياً ثقافياً والتي تصنع للآخر آخريته صناعة واعية وليست عفوية، فالمطلع على كتاب ابن سنان (سر الفصاحة) يجد

نفسه في مجال الصناعة الأدبية الفنية بأتم معانيها من حيث صناعة الاكلام الذي يستعمل (اللفظ والمعنى والتركيب والبناء والصياغة والأسلوب، فضلاً عن صناعة الآخر في وصفها بقوله ما يحتاج إليه (الكاتب والشاعر إلى معرفته) لذا نجد ابن سنان يردد لفظ (الصناعة) في أكثر من موضع في مؤلفه السابق الذكر. ومن الملاحظ ان اختيار لفظة (الصناعة) من قبل ابن سنان تدلُ على ذاته الواعية وهذا ما نتلمسه في قوله: "وأمثال هذا كله في الأشعار... إلاّ إني اعتمد على التمثيل بأشعار هؤلاء الفحول المتقدمين في هذه الصناعة لأمور أولها صيانة هذا الكتاب عن تهجينه بذكر غيرهم وثانياً أن اللفظة التي تكره في نظم هؤلاء الحذاق تقع فريدة وحيدة يظهر مباينتها لكلامهم، فالعلم بها واضح، وكشفها جلي" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٨١)، هذا الخطاب يشير إلى أمرين الأول: يلمح لنا ابن سنان في نصه السابق أن ذاته هي الأساس في البناء الأدبي والفكري والثقافي وان الآخر هو تابع لها، وهذا كامن في قوله: (إلاّ إني اعتمد على التمثيل – صيانة هذا الكتاب عن تهجينه). وهذا يشير إلى أنَّ (أناه) تنطوي على ذات متعالية، يمكّنه وعيه وسعة اطلاعه ومقدرته النقدية والأدبية على تحديد الصفات المميزة للآخر فهو يصفهم بقوله: الفحول المتقدمين – الحذاق) كي يخلق ويصنع للآخر صورة تلبي رغبة الذات، أما الأمر الثاني فهو: أن انتقاء لفظة الصناعة عندما قال: (الفحول المتقدمين في هذه الصناعة) إن دلَّ على شيء إنما يدلُ على ذات واعية تجد في نفسها المهارة والحذق في الصناعة الفنية والأدبية للآخر أو يمكن وصفه بـ (الخلق الفني للآخر) سواء أكان (كاتباً أم شاعرً) أي (المبدع بصورة عامة) ولاسيّما أن كلمة الصناعة تدلُ على المهارة والحذق.

وبالعودة إلى المعاجم العربية نجد أن لفظة (الصناعة) تعني: "صنع الشيء– صنعاً: عمله" (هارون، ١٩٧٩م، الصفحات ٥٢٧–٥٢٨)، وقال تعالى: ﴿ ڤ ڤ ڦ ﴾ وصنعه بعين فلان: قام بالعمل مشمولاً برعايته " و"الصانع من يصنع بيديه " ويقال: امرأة صانعة اليدين: ماهرة حاذقة في عمل اليدين" (هارون، ١٩٧٩م، الصفحات ٥٢٧–٥٢٨)، ويقال أيضاً: "والصنع: عمل الشيء صنعاً وامرأة صناع ورجل صنع، إذا كانا حاذقين فيما يصنعانه" (ابن فارس، د.ت)، وفي الفلسفة الصنعة: الطريقة المنظمة الخاصة التي تتبع في عمل يدوي" (هارون، ١٩٧٩م، صفحة ٥٢٨)، أما الصناعة أو الصنعة في الشعر فهي حركـة ذهنية يدرك الشـاعر الصورة أو يخضع الإحساس للفظ فيكـون خلق فني (جهامي، ٢٠٠٠م، صفحة ١١١٧).

فالصنعة في المعاجم العربية تعني المهارة والحذق في اختيار الألفاظ للمعاني التي تناسبها والمهارة في الوصول إلى الجودة الفنية أو الخلق الفني، وهذا لا يمكن إلاّ بوجود الطبع وبالعودة إلى سر الفصاحة نجد أن لفظة الصنعة قد استعان بها ابن سنان في تضاعيف كتابه نذكر منها في قوله: "وهو عيب فاحش في هذه الصناعة" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ١٧٧)، وأيضاً يذكرها بقوله: "وهنا عيب ظاهر في أكثر من ينتحل صناعة الكتابة في زمننا هذا" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ١٨٢). وفي مجال صناعة الكلام وما يجب على الأديب أن يتجنبه يكرر

لفظة الصناعة بقوله: "إنَّ الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم ..." (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ١٩٥). وفي الموضع ذاته يذكر لفظة (الصناعة) بقوله: "أصحاب المهن واستعمالاتهم لألفاظ صناعتهم ومعانيها فيما ينظمونه أو ينشرونه وربما كان ذلك أو بعضه شيئاً يصنع وينسب إليهم" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ١٩٧).

وفي معرض حديثه عن المعاني يذكر(الصناعة) بقوله: "نحتاج أن نومئ إلى المعاني التي تستعمل في صناعة تأليف الكلام المنظوم والمنثور ..." (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٢٧٦). وفي مسألة النص الأدبي وفروعه على العرف الاجتماعي والآداب العامة يكرر (الصناعة) بقوله: "ليس الأمر عندي على ذلك لأنَّ صناعة التأليف في المعنى الفاحش مثل الصناعة في المعنى الجميل ... وليس المعنى في نفسه فاحشاً وجميلاً تأثير في الصناعة" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٢٧٦). ويذكر ابن سنان لفظة الصناعة وما لها من تأثير في مجال الثقافة العامة للآخر، يقول: "فإن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم واطلع على كل صناعة لأثر ذلك في تأليفه ومعانيه وألفاظه..." (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٣٤٣). ثم يتوجه ابن سنان للآخر (الكاتب والشاعر) بنصيحة عامة في مجال فنون الأدب فهو يضع الصناعة بمؤثرات الأدب كونه يجعل للصناعة فنون كما للأدب فنون، فهو يقول: "الوصية لهما ترك التكلف وتجنب الإسهاب في فن واحد من فنون الصناعة..." (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٣٤٣).

من خلال النصوص السابقة نلحظ أن ابن سنان لم يبتعد كثيراً في دلالة لفظة الصناعة عن دلالتها في المعاجم العربية، فبالإضافة إلى ما تعنيه (الصناعة) من المهارة والحذق فقد وظّف أسلوب التكرار لهذه اللفظة ليسهم التكرار بدوره على تقوية النبرة الخطابية للأنا الماهرة الحاذقة فقد ساعد تكرار كلمة (الصناعة) في إعطاء تعبير شعوري يكشف عن الإحساس النفسي للموقف النقدي (للأنا) لابن سنان ليفصح عمّا يمتلكه من مهارة وحذق نقدي فني يؤهله في إعطاء أحكام أدبية نقدية تصنع من الآخر (الكاتب والشاعر) آخر منه (مبدع) الذي وصفه بـ (الفحل المفلق).

وبمعنى آخر يصنع ابن سنان صورة للآخر تلبي رغبة (ذاته أو أناه) كون الصورة التي ترسمها الذات للآخر لا تقوم عفواً ولا ترتسم في خلو بعيداً عن أي تصميم أو سابق تقدير، أي ناتجة عن وعي وثقافة يمنحان الذات شيئاً من التفرد (بن سعيد، ١٩٩٥م، صفحة ١٢). وهذا العلو للذات أفصح عنه ببعض العبارات في أقواله السابقة التي هي: (نحتاج أن نومئ – ليس الأمر عندي – الوصية لهما ترك التكلف). ولو تمعنا قليلاً في هذه الأقوال أو العبارات السابقة نلحظ أن ابن سنان قد تعامل مع الآخر من منطلق الذات كونها المركز الأدبي والفني لصنع الآخرية وذلك أنَّ السياق الثقافي الذي تعامل به ابن سنان مع الآخر يتمركز حول محورين الأول: الذات النقدية وثقافتها، فالنصوص السابقة لابن سنان إنما تتضمن في بنيتها أنساقاً مضمرة تعلي من شأن الأنا التي تعي وجودها

(عليمات، ٢٠٠٤م، صفحة ٥٣)، والمحور الثاني هو خلق جديد للآخر أو إعادة إنتاجه وهذا يفسر أن موقف الآخر في نظر ابن سنان رخو هش، فالناقد يتحرك من أرض صلبة كونه ذاتاً عارفة بخبايا النص إلى أرض الآخر ليعطي للآخر كل أسباب التميز وذلك بدعوة ابن سنان للتغيير عبر تطوير الأداة المعرفية للآخر (الكاتب والشاعر) والتي تقوم على أسس ومعايير تسهم في تمييز الآخر المبدع عن غيره، وهذا ما يمكن أن نتلمسه في الشروط والأحكام التي أفرد لها ابن سنان فصل في مؤلفه (سر الفصاحة)، لما لها من أهمية بالغة فقد أطلق عليها (ما يحتاج إليه الكاتب والشاعر إلى معرفته)، ومن عنوان هذا الفصل فضلاً عن عنوان الكتاب الذي هو (سر الفصاحة) يكشف لنا ابن سنان وبشكل واضح سر الفصاحة والبلاغة، وكيف طوّعها ابن سنان في مؤلفه لخدمة الآخر والإفادة منها إذ إنها غالباً ما تكون الأداة التي يرتكز عليها (الكاتب والشاعر) لبلوغ الجودة الفنية وهذا الكشف يفسر لنا كيف أسهمت أنا الناقد في تكوين الآخر وصناعته صناعة معرفية ثقافية، ومن الشروط والمعايير التي يرى ابن سنان بأنها حجر الأساس في تكوين الآخر هي:

١. اللغة يقول فيها: "الذي يحتاج مؤلف الكلام إليه من معرفة اللغة التي هي لغة العرب قدر ما يعرف كل شيء باسمه لذي وضعته له ويجب أن يكون ذلك الاسم أفصح أسمائه إن كانت له عدّة أسماء" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٣٤١) لهذه اللغة في نظر ابن سنان أهمية بالغة كونها مقياس مهم في التمييز بين الأدباء لأنَّ اللغة هي هوية المبدع وميدان تميزه والمرجع الذي ينهل منه (الآخر) أو الأديب ثقافته ومكمن إبداعه ولم يكتفِ ابن سنان بمعيار اللغة، فقد وظف معياراً آخر مكمل لمعيار اللغة ويمكن عدّهُ أداة من أدوات فصاحة اللفظة سواء في الشعر أو في النثر وهو:
٢. معيار (النحو) يقول فيه: "ويحتاج في علم النحو إلى معرفة إعراب ما يقع له في التأليف حتى لا يذكر لفظة إلاّ موضوعة حيث وضعتها العرب من إعراب أو بناء حسن ما وردت عنهم وليس لأحد أن يظن أن هذا هو معرفة النحو كله والاشتمال على جميع علمه لأنَّ الكثير من النحو علم تقدير مسائل لا تقع اتفاقاً في النظم ولا في النثر" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٣٤١).

فالنحو شرط أساس وفعّال في تكوين الآخر وإبداعه، وهذا الإبداع مرهون بالإجادة في النحو واللغة اللتان هما من أهم أدوات البناء الأدبي، فالتمكن من هذه الأدوات وسلامتها يسمح للأنا الناقد وضع الآخر في مكان مختلف عن الآخرين غيره، فضلاً عن التوسع في المعرفة هو الذي يكفل تطور الذات وازدياد وعيها وثقافتها، أما المعيار الآخر الذي أوجب ابن سنان الآخر الالتزام به هو:

٣. (العروض) إذ يقول: "ويحتاج الشاعر خاصة إلى الخمسة عشر بحراً التي ذكرها الخليل بن أحمد" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٣٤٢)، ففي هذا المعيار تبرز الذات الواعية بشكل جلي الذي يوجب ابن سنان الآخر (الشاعر)

أن يكون على معرفة تامة بالبحور الشعرية التي هي خمسة عشر بحراً واضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي ليصبح الشاعر فحلاً وهذا الخطاب السابق إنما هو خطاب إلى آخر يمتلك الطبع والموهبة التي يجب أن يصقلها بالمعرفة التامة بهذه البحور وليتمكن الشاعر من أدواته لبلوغ الجودة الفنية في عمله الأدبي والمتأمل في نص ابن سنان السابق أو في معيار القوافي يلحظ وجود نسق مضمر يبتغي منه إظهار التميز والتعالي الأنا على الغير أو الآخر وليشعر الآخر بأن الذات هي الأساس الذي تصدر عنه الأحكام والتوجيهات التي يمكن من خلالها تحديد من هو الآخر (البازعي، ٢٠٠٨م، صفحة ٣٦).

ومن الجدير بالذكر أن التفاتة ابن سنان لمعيار (القوافي) إنما يدلُّ في جانب منه على قوة ملاحظة الذات وتجديدها كون (القوافي والحروف والحركات) تعمل على خلق حالة من إذعان النفس وذلك كون القوافي في جانب منها ترتبط بالنشاط النفسي، إذ تعمل أصوات الحروف وإيقاع الحركات وارتباطها مع المعاني على إنتاج صورة تنفعل لها النفس بإيحاءاتها الدالة لتؤثر في المتلقي وهذا يتم بملامسة مناطق خفية في كوامنه، وبذلك يكتسب معيار القوافي في نظر ابن سنان دلالتين هما:

١. الأثر الذي يحدثه في المتلقي أي دلالة سيكولوجية نفسية.
٢. يكتسب دلالة التشكيل الجمالي ليخلق هذا التشكيل تصوير ما بين العالم أو الوجود.

أما المعيار الذي يلي معيار القوافي فهو:

٤. معيار تاريخ العرب ووجوب معرفة الأديب أنساب العرب ومآثرهم ومناقبهم، فابن سنان يقول في هذ المعيار: "ويحتاج أيضاً إلى معرفة المشهور من أخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها ومنازلها وسيرها... فإنه يفتقر في النظم إلى ذكر شيء منها" (الخفاجي، ١٩٥٣م، صفحة ٣٤٥).

يضع ابن سنان في هذا النص شرط أساس من شروط تكوين الآخر ألا وهو الاطلاع على أيام العرب وأخبارهم لأنَّ بها يستعين الشاعر أو الأديب على معرفة المناقب والمثالب وليكون قادراً على أن يمدح ويهجو وهو على معرفة تامة بما يصنعه في شعره (القيرواني، ١٩٦٣م، صفحة ١٩٧/ ١)، فالإنسان لا يمثل ذاتاً واعية مقفلة على نفسها، إذ إنَّ المعرفة بتاريخ العرب تمثل بدورها أداة لتغيير الذات ومن ثم ينعكس هذا التغيير في المجتمع والعالم (العبيدي، د.ت، صفحة ٢٤)، فضلاً عن أن الأهمية في نظر ابن سنان في وجوب معرفة أخبار العرب التي تشمل تاريخها وأحاديثها وأمثالها ومنازلها وسيرها وكل ما يتعلق بعادات العرب تكمنُ في كونها موروثاً اجتماعياً يمثل لما هو سائد في المجتمع من قيم إنسانية ثقافية كامنة في ذاكرة الفرد التي تعمل في بعض الأحيان على تحديد سلوكه.

وبهذه المعايير التي أوجبها ابن سنان يتحدد الإطار العام للآخر بحسب توظيف رؤية ابن سنان الناقدة ليكوّن هذا الآخر بدلالته ورمزيته وبقضيته وبواقعيته ومكانته موضوعاً للذات ومقابلاً لها (كاظم، ٢٠١٠م، صفحة ١٣٣)، فوظيفة النقد في هذا الموطن قائمة بالأساس على تقويم الآخر وصناعته أدبياً وفنياً، إذ يعمل الناقد على الانتقال من فلسفة الذات والعمل على فلسفة الآخر على حد تعبير (هاير ماس) والذي يرى أن إعادة إنتاج الآخر أو التواصل معه يتحقق عن طريق المعرفة (الميلاد و وآخرون، ٢٠٠٦م، صفحة ٦٤).

فقد استغل ابن سنان ما يمتلك من معرفة أدبية فنية وسعة اطلاع لتحديد مسار للآخر بوضع شروطٍ ومعايير أو أسس تمثل القيم الثقافية والأعراف الأدبية التي تحولت فيما بعد إلى أنساق ثقافية راسخة ومتجذرة في ذاكرة الثقافة العربية التي تصنع من الآخر (سواء أكان كاتباً، شاعراً) (مبدع).

وبطبيعة الحال فقد انبرى الناقد ابن سنان في تحديد الأسس المعرفية التي تسهم بدورها في تضخيم ذات الآخر وتعظيمه مستنداً في ذلك على رصيد ثقافي ومقدرة ووعي تعتمد عليه الأنا اعتماداً مصيرياً إلى درجة تصبح بها هذه الثقافة هي الوسيط الذي تتمركز حوله ثنائية الذات والآخر (الغذامي، د.ت، صفحة ١٢٠).

فجاءت صناعة الآخر بجوانبها اللغوية والأدبية النقدية تحمل مدلولات إيحائية تصدر من الذات للآخر أي تنبعث من العالم المعرفي والثقافي، وفي بعض الأحيان الوجداني الانفعالي للناقد، وهذا يدلُّ على التلازم بين (الذات والآخر). ومن هذا الأساس انطلق ابن سنان في بيان أوجه الفصاحة والشروط التي يلتزم بها الكاتب والشاعر وتحديد أبعادها والتي كانت مثار اهتمام النقاد العرب والبلاغيين، فضلاً عما انماز به من حضور لافت في أغلب المؤلفات النقدية التي ما زال صدى هذه المعايير والأحكام اللغوية الأدبية مؤثراً حتى يومنا كون التزام المبدع الكاتب والشاعر (الأخر) بها تمثل الأداة للعمل الإبداعي ونواته.

النتائج:

١. تفصح الرؤى النقدية والأحكام السابقة لابن سنان عما تملكه الذات من وعي وثقافة نقدية أدبية تؤهل الذات لصناعة الآخر وإنتاجه على وفق رؤية الأنا للناقد وعلى الآخر المتمثل بـ (الكاتب والشاعر) بدوره أن يستجيب لهذه الأحكام كونها ستجعل منه الخنذيذ بين قومه.
٢. مهما حملت الذات الناقدة لجعل الآخر هو الشريك المبدع والذي يمكن أن نطلق عليه بـ (التفاعل الثقافي) إلاّ أن تعاليها لا محيد عنه، فتبرز بين الحين والآخر الأنا المتعالية المتضخمة التي لا ترى سوى نفسها وأنها صاحبة الفضل على الآخر الذي ينظر إليه على أنه أدنى منها.

٣. تتعدد الأساليب النقدية التي استعملها ابن سنان للتعبير عما يجول في خاطره وتجيش به نفسه من تضخيم للذات الفردية وتحميلها مسؤولية إعادة وتحديد المسار للآخر وعدم الانحياز عنه مما يكشف أن هذه الأساليب النقدية التي ذكرت في البحث ليست فقط عبارات لفظية يلجأ إليها الناقد لبيان وجهة نظره وإنما هي مكمن للأنساق الثقافية التي تنسجم دلالياً والموقف الذي تعانيه (الأنا للناقد) من الآخر، فبدلاً من التعبير عن الذات تتحول هذه الذات الناقدة إلى مراقب لذات الآخر (الكاتب والشاعر) في الوسط الثقافي.

٤. إنَّ (الأنا) لابن سنان طالما شعرت بعمق وعظم مسؤوليتها اتجاه الفصاحة والبلاغة وفنون القول العربية، لذا وظفت ما تمتلكه من معرفة وسعة في خدمة اللغة العربية والنص الأدبي والمبدع (الأخر) في الوسط الثقافي السائد آنذاك.

٥. إنَّ تأكيد ابن سنان على وجوب إتقان اللغة والنحو وأيام العرب والعروض من لدن الآخر (الكاتب والشاعر) إنما يدلُّ على القدرة والخبرة التي يمتلكها الناقد المتحصلة عن طريق الثقافة والممارسة والاطلاع فاستوى بذلك بصيراً بدقائق الأمور التي تخص النثر والشعر والنقد أي الأدب بصورة عامة.

المصادر والمراجع:

ابن رشيق القيرواني. (١٩٦٣م). *العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده*. (محمد محيي الدين عبد الحميد، المحرر) مصر: مطبعة السعادة.

ابن سنان (ت ٤٦٦هـ) الخفاجي. (١٩٥٣م). *سر الفصاحة*. (عبد المتعال الصعيدي، المحرر) مصر: مطبعة محمد صبحي وأولاده، الأزهر.

أبي الحسين بن فارس. (د.ت). معجم *مقاييس اللغة* (الإصدار الثالث). (عبد السلام هارون، المحرر) قم، إيران: دار الكتب العلمية.

أحمد أبو زيد. (١٩٩٠م). *المفهوم الاجتماعي للمنهج*. مؤسسة الخليج العربي.

المعجم الوسيط. (١٩٧٩م). مجمع *اللغة العربية* (الإصدار ج١). (إشراف: عبد السلام هارون، المحرر)

جيرار جهامي. (٢٠٠٠م). *موسوعة مصطلحات الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر* (الإصدار الثالث). مكتبة لبنان ناشرون.

حسين مجيد العبيدي. (د.ت). *من الآخر إلى الذات، دراسة في الفلسفة الحديثة والمعاصرة* (المجلد د.ط). بيروت: دار الطليعة.

زكي الميلاد، و وآخرون. (٢٠٠٦م). *تعارف الحضارات* (المجلد الاولى). دمشق: دار الفكر.

سعد البازعي. (٢٠٠٨م). *الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف* (المجلد الاولى). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

سعد محمد رحيم. (١٩٩٨م). *القرابة الفكرية بين إدوارد سعيد وفوكو* (الإصدار ع١٧، المجلد د.ط). الموقف الثقافي، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.

سعيد بن سعيد. (١٩٩٥م). *أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة*. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديد.

عبد الله الغذامي. (د.ت). *النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية* (المجلد الخامسة). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.

محمد الخباز. (٢٠٠٩م). *صورة الآخر في شعر المتنبي (نقد ثقافي)* (المجلد الاولى). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، دار الفارس العربي.

محمد عبد الشافي القوصي. (٢٠١٦م). *عبقرية اللغة العربية*. إيسيكو، الرباط: منشورات المنظومة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

نجم عبد الله كاظم. (٢٠١٠م). *الآخر في الشعر العربي الحديث تمثيل وتوظيف وتأثير*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات.

نجيب البلدي ديكارت. (١٩٦٨م). *سلسلة نوابغ الفكر الغربي* (المجلد الثانية). مصر: دار المعارف.

يوسف عليمات. (٢٠٠٤م). *جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهلي أنموذجاً* (المجلد الاولى). بيروت: المؤسسة العربية للنشر.

Sources and references:

Ibn Rashiq Al-Qayrawani. (1963 AD). The main topic on the merits of poetry, its etiquette, and its criticism. (Mohamed Mohieddin Abdel Hamid, editor) Egypt: Al-Saada Press.

Ibn Sinan (d. 466 AH) Al-Khafaji. (1953 AD). The secret of eloquence. (Abdul Mutal Al-Saidi, editor) Egypt: Muhammad Sobhi and Sons Press, Al-Azhar.

Abu Al-Hussein bin Faris. (d.t.). Dictionary of language standards (third edition). (Abdul Salam Haroun, editor) Qom, Iran: Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah.

Ahmed Abu Zeid. (1990AD). The social concept of curriculum. Arabian Gulf Foundation.

Intermediate dictionary. (1979 AD). Arabic Language Academy (version 1). (Supervised by: Abdel Salam Haroun, editor)

Gerard Jahami. (2000AD). Encyclopedia of terms of modern and contemporary Arab Islamic thought (third edition). Lebanon Library Publishers.

Hussein Majeed Al-Obaidi. (d.t.). From the Other to the Self, A Study in Modern and Contemporary Philosophy (Vol. D. I). Beirut: Dar Al-Tali'ah.

Zaki Al-Milad, et al. (2006AD). Introduction to Civilizations (Volume One). Damascus: Dar Al-Fikr.

Saad Al-Bazei. (2008AD). Cultural difference and the culture of difference (Volume One). Casablanca, Morocco: Arab Cultural Center.

Saad Muhammad Rahim. (1998AD). The intellectual kinship between Edward Said and Foucault (issue no. 17, vol. ed.). Al-Mawqif Al-Thaqafi, Iraq: House of General Cultural Affairs.

Saeed bin Saeed. (1995AD). Europe in the mirror of the journey, the image of the other in contemporary Moroccan travel literature. Casablanca: New Success Press.

Abdullah Al-Ghadhami. (d.t.). Cultural Criticism: A Reading of Arab Cultural Patterns (Volume Five). Casablanca: Arab Cultural Center.

Muhammad Al-Khabaz. (2009AD). The Image of the Other in Al-Mutanabbi's Poetry (Cultural Criticism) (Volume One). Beirut: Arab Foundation for Studies, Dar Al Fares Al Arabi.

Muhammad Abdel Shafi Al-Qusi. (2016AD). The genius of the Arabic language. ISESCO, Rabat: Publications of the Islamic Educational, Scientific and Cultural System.

Star Abdullah Kazem. (2010AD). The other in modern Arabic poetry is representation, employment, and influence. Beirut: Arab Foundation for Studies.

Naguib El Baladi Descartes. (1968 AD). Geniuses of Western Thought Series (Volume Two). Egypt: Dar Al-Maaref.

Yusuf Alimat. (2004AD). Aesthetics of Cultural Analysis Pre-Islamic Poetry as a Model (Volume One). Beirut: Arab Publishing Corporation.